الخوفُ من الله ومخافتُه في أش ١-١١

الأخت روز أبي عاد

مقدّمـــة

إذا اردنا أن نعدّد صفات الله في العهد القديم، أوّل ما يتبادر الى ذهننا هو أنّه مخيف رهيب. ولكن، هل إن إسناد هذه الصفة الى الله يُضفي عليه نسخة طبق الأصل لدى جميع الناس؟ بمعنى آخر، هل إنّ الخوف الذي يوحيه الله يؤدّي الى المضاعفات ذاتها لدى جميع الناس؟

إنّنا بسعينا لتبيان صورة الله المخيف في أش ١-١١، لا بدّ من العودة الى إلقاء الأضواء على معاملته للشعب. بالواقع، فإن أوّل ما تطالعنا به النصوص التي نحن بصددها إنّما هي المصائب والويلات التي سيُلحقها بالإسرائيليين الذين أقلّ ما يقال فيهم إنّهم "ذرّية أشرار وبنين فاسدين، تركوا الرب واستهانوا بقدوس اسرائيل" (أش ١:٤).

مَن يخاف من الله؟

نبدأ بعرض الويلات التي يُطلقها الله على مختلف فئات الشعب لكي نتمكّن من خلالها أن نصل الى هويّتهم:

٥: ٨-١٠: «ويلٌ لكبار الملاّكين الذين يسحقون الفقراء».

٥: ١١-١٧: «ويلٌ لطالبي المسكرات المنهمكين ابداً في المآدب الفاخرة».

٥: ١٨-١٩: «ويلٌ للمستهزئين بتصميم الرب».

٥: ٢٠: «ويلٌ للذين ينصّبون انفسهم عارفي الخير والشر».

٥: ٢١: «ويلٌ للذين يظنّون أنفسهم حكماء وعقلاء».

٥: ٢٢-٢٣؛ ١٠: ١-٤: «ويلٌ للمشرّعين والقضاة الفاسدين الذين لا يبالون بحق الفقراء».

١٠: ٥-٧، ١٢، ١٥: «ويلٌ لملك أشور الذي يدّعي أنّه سيحتلّ أمماً لا تحصى ويبيدها».

بالإضافة الى الجماعات المذكورة أعلاه، يعرض لنا النبي فئات أخرى لا تقلّ سوءاً عن سابقاتها:

- بنات أورشليم اللواتي يمشين مزهوّات مختالات بأنفسهنّ، متجلجلات بكل أنواع الحلي واللواتي يستأثر الشرّ بهنّ (أش ٣: ١٦-٢٤)،
- كلٌّ متكبّر متعالٍ وكلّ مترفٍ مكتفٍ بذاته ومتّكِلٍ على مراعيه وأطلاله (أش ٥: ١٦-١٧)،
- كلّ مَن لا يسير حسب شهادة الرب (أش ٨: ١٦، ٢٠)،
- مستحضري الأرواح والعرّافين (أش ٨: ١٩، ٢٢).

مَن يخاف الله؟

إزاء تصرّف الشعب المشين للرب، نجد موقفاً آخر يتمايز عنهم، إنّه موقف النبي اشعيا الذي يضع نفسه مراراً بمعزلٍ عنهم باستعماله العبارة "هذا الشعب"[1]، وكأنّه لا يمتّ إليهم بأيّة صلة. فبالرغم من أنّ الله تراءى له بأبّهة ملكٍ عظيم يبسط نفوذه بإحكام دون أن يجرؤ أيّ

(١) رج أش ٦:٩، ١٠؛ ٨:٦، ١١، ١٢؛ ٩:١٥.

أحد على مقاومته (أش ٦: ١١)، يملأ الأرض كلّها من مجده (أش ٦: ٣)؛ هو القدّوس الذي بحضوره يشعر الإنسان أنّه هلك لأنّه يدرك أنّه نجس وأنّه محاط بأناس نجسيّ الشفاه (أش ٦: ٥)، بالرغم من كلّ ذلك، نجد النبي يطالعنا بتدخّله الجريء ليهدّئ روع الملك متصدّياً للخوف بحزم ثابت (أش ٧:٤)[٢].

فمن أين يأتي بهذا العزم ليدافع بقوة عن رأيه؟ يستقي أشعيا قوّته من خبرته الحميمة مع الله، وإيمانه به وبوعوده التي قطعها لأورشليم. إنّه السلاح الوحيد الذي يركن اليه والذي يخلق في نفسه الثقة التي تنفي الخوف وتفترض الاتّكال المطلق على الله.

الله الذي يخيف الأشرار

ماذا يمكننا أن ننتظر من ردّة فعل الله الذي أُهين في صميم محبّته وأمانته؟ هل يبدو غضبه ظلماً أم دفاعاً مشروعاً عن الذات وعن نكران الجميل له؟ هل نفاجأ بأنّ مَن يشكّلون الفئة الأولى سيكونون فريسة الشدّة والظلمة والضيق وديجور الأغلال (أش ٨:٢٢)؟

إنّ النكبات الجماعية هي جواب الله الذي تغيظه رداءة البشر المفرطة. وبالتالي فالحرب آنذاك كانت ذات فعالية قضائية، أي إنها كانت بمثابة تعبير عن حكم الله القانوني يُعرب فيه عن استيائه من شعبه وعن عدم تغاضيه عن الشرّ الذي ارتكبه تجاهه. كلّ ذلك يضفي على الله صورة القاضي الذي يصون العدالة ويثبّت الانصاف قبل أن يكون ذاك المحارب الذي يشنّ المعارك.

لا يتمتّع أي أحد بالحصانة القضائية تجاه الله، إذ لا يوجد لديه أي امتياز أو أي استثناء، فتطبيقه للعدالة منصف، شامل ولاحياديّ. فالقاعدة المطلقة في دار محكمته هي المساواة بين سائر فئات الناس دون الأخذ بعين الاعتبار مكانتهم الاجتماعية، بالإضافة الى عدم محاباته الوجوه وعدم قابليته للرشوة كما هي الحال قائمة في المحاكم البشرية.

الله الذي يُخافه الأبرار

إذا كان الله قد خصّ النبي أشعيا بترائيه له فهذا لا ينفي أنّه ما زال غير المدرَك، المكتنف بالأسرار، المحجوب عن الأبصار، وهذا ما يفسّر وجود سحابة الدخان التي تخلق المسافة بين الخالق والمخلوق (أش ٦:٤). إنّه الحضور الفعّال الذي يستر في كنفه نظرة البشر المتطفّلة. بقدر ما يبدو الله منظوراً، بالقدر ذاته يبقى مستوراً، من هنا فالهالة التي تحيط بجلاله هي التي توجب قدسية رهيبة وترسم حدوداً بيّنة بين عالمه وعالم الإنسان.

الله يخيف الإنسان البارّ لأنّه قدّوس (أش ٦: ٣)، وقداسته ترتبط بموضوعين: الغيرية (l'altérité) والغيرة (la jalousie): فالله القدّوس هو الآخَر (Tout-Autre)، هو الذي يغوص في حياة البشر الخاصة حتى قعرها ولكنه في الوقت عينه يحتفظ بمسافة لامتناهية بينه وبينهم؛ والله الغيور هو الذي يأبى إلاّ أن يكون وحده موضوع العبادة ومحور الإيمان ومحطّ الاتّكال.

إنّ الخوف الذي يعتري الإنسان المتّقي الله يتحوّل الى صفاء وسكون يخوّلان هذا الأخير المضي قدماً في حياته غير آبهٍ بالمصاعب والمخاطر التي ستواجهه، لا بل يزداد ثقة ورجاء بإلهه؛ فالنبي أشعيا يدعو الملك آحاز الى أن يخاف الله عوض أن يفزع من مؤامرة الجارَين: إسرائيل وعاصمتها آنذاك السامرة، وآرام وعاصمتها دمشق (رج أش ٨ : ١٢-١٣).

خلاصة

لا بدّ من التنويه أولاً أنّ الشعور بالخوف تجاه الله مردّه الى كون الخالق يتخطّى الفكر البشري ويتسامى عالياً فوق طاقة الإنسان. فهل يمكن لهذا

(٢) ذلك أنّ حالة اضطراب كانت تتملّك آحاز، ملك يهوذا، بعد أن علم أن ملكَي آرام واسرائيل قد صعدا لمحاربته، لأنه رفض أن يتحالف معهما ضدّ ملك أشور (أش ٧:٢).

الأخير بعد ذلك الاّ أن يمحضه الطاعة والاحترام والمهابة؟

أمّا إذا كانت صورة إله الخوف والظلم والعنف والسخط والانتقام والإبادة وافتعال الحرب هي بالحري الصورة التي تحجب عن الانسان سائر الصفات التي تميّز الله، فعليه أن يعمل على إعادة صوغها من جديد، إذ إنّ إلهه ليس مدمِّراً همجياً، ولكنّه إله عادل يخيف المذنبين ويكافئ خيراً من يتمسّك بالأمانة له. فالحكم الذي يصدره الرب لا يسبّب دائماً هلاك المذنبين، بل ينتج عنه أيضاً الخلاص لضحايا الظلم والتعسّف؛ كما أنّ الرب لا يُفني الجميع بل يُبقي القديس، أي البقية المطهَّرة التي ستصير أمّة كبيرة (أش ٤:٣).

في النهاية نختصر عمل الرب بأنّه إحقاق الحق. معاذ الله أن تكون فسُدت أبصار البشرية الى حد أن ترى في الإله الذي يمارس الحق ذاك المرعِب المهول الإنتقامي.

مجلة المنارة

العدد ١ (٢٠٠٤):

الأب جان غالو اليسوعي، "العبادة للآب"، ص ٢٣.

العدد ٢-٣ (٢٠٠٤):

الخوري بولس الفغالي، "أورشليم المدينة المقدسة"، ص ١٧١.

الخوري جوزف نفاع، "أورشليم العاصمة السياسية والدينية للمملكة الداوديّة"، ص ١٨٩.

الخوري جان عزام، "الهيكل والعبادة في أورشليم"، ص ٢٠٧.

الأب إميل عقيقي، "أورشليم في التقليد اليهودي الرابيني"، ص ٢٢١.

الأب نجم شهوان، "ليتورجيا أورشليم"، ص ٢٤٣.

الأب سهيل قاشا، "أورشليم القدس في المصادر السريانية"، ٤٨٥.

الأخت باسمة الخوري، :أورشليم السماويّة"، ص ٥٠٧.

مجلة المسرّة

العدد ٨٧٤ (٢٠٠٥):

الخوري بولس الفغالي، "يسوع التاريخي"، ص ١٩٧.

جاك شلوسّر (تعريب الخوري بولس الفغالي، إعداد الأب جورج باليكي البولسي)، "يسوع الناصري، يهوديّ أصيل وحر"، ص ٢٠٥.

الأب يوسف مونّس، "مجدليّة القيامة"، ص ٢١٥.

الأب جورج خوّام البولسي، "أنصار حق وشهادة حياة"، ص ٢٤١.

الأب ميلاد الجاويش المخلصي، "يسوع وإبليس وجهًا لوجه: دراسة بيبليّة وتأمّل في (مر ١:٢١-٢٨)"، ص ٢٦٨.